ثلاث قصص لبورشرت

ترجمة عن الألمانية منى نويشي

فولفجانج بورشرت : واحد من الجيل الضائع ، الجيل المخدوع بلا جذور ولا وطن ولا امل ولا وداع . الجيل الذي رجع الى بلده بعد الحرب العالمية الثانية فوجد صحراء من الانقاض في كل مكان ، مدينته انقاض ، بيته انقاض ، قيمه ومثله واحلامه انقاض . شمسه صغيرة ، حبه وحشي ، شبابه بلا شباب . ايتام يصرخون في الظلام . الآباء والامهات تحت التراب العنكبوت والجرذان تعشش في الجحور وتتغذى على جثث الموتى . الابطال والزعماء الجوف اوثان ممرغة في الرماد . الارض خربة والسماء خاوية والزوجة في احضان رجل آخر وصرخ بورشرت في قصائده القليلة، وقصصه القصيرة المركزة ، وبرهن من جديد على ان الكلمة يمكن ان تتحول الى صرخة ـ صرخة احتجاج تلسع الاذان ،وتفتح الاعين وتحطم السدود وتوقظ الاحياء الموتى ... وفولفجانج بورشرت هو احد ابناء هذا الجيل المتعب الجائع المهان ، بل هو اصدق من عبر عنه بصوت لا يزال يجرح القلب ويدوي في سمع الاجيال .

ولد سنة ١٩٢١ في مدينة هامبورج ، واشتغل في بداية حياته ببيع الكتب ثم اصبح ممثلا في مدينة لونبرج . وجند سنة ١٩٤١ ، وجرح جرحا خطيرا سنة ١٩٤٢ ثم وضع في السجن سنة ١٩٤٤ بسبب احتجاجه على الفاشية . وحكم عليه بالاعدام ، ثم ارسلوه الى الجبهة الشرقية لينفذ فيه الحكم بطريقة اخرى ! واصيب بمرض خطير فسرح من الخدمة سنة ١٩٤٣ ورجع الى التمثيل في مسارح المنوعات بمدينة هامبورج ، واشتغل بعد ذلك بالاخراج . عاوده المرض من اثر جرحه القديم ، وتطوع اصدقاؤه لارساله للاستشفاء في سويسرا فمات في مدينة بازل (بال) في السادسة والعشرين من عمره سنة ١٩٤٧ . ونشر معظم انتاجه بعد موته ، كما عرضت مسرحيته « أمام الباب » بنجاح هائل على كل المسارح الالمانية ، ولا زالت تمثل الى الان وتذكر الناس بالجيل الضائع الذي عاد الى وطنه فوجد نفسه بلا وطن !

د. عبد الغفار مكاوي

١ . الملوك الثلاثة المعتمون

اخذ يتحسس طريقه في الضاحية المظلمة ، وكانت البيوت متهدمة في مواجهة السماء ، وكان القمر غائبا والاسفلت يئن مفزوعا من وقع الخطا المتاخرة ، ثم وجد لوحا خشبيا قديما وخطا بقدمه على اللوح العفن فتنهد وانكسر . كانت رائحته حلوة وكان هشا . ورجع يتخذ طريقه ثانية في الضاحية المظلمة . لم تكن هناك نجوم في السماء . وعندما فتح الباب (وبكى الباب من شدة الالم) فوجىء بعيني زوجته الزرقاوين الشاحبتين وهي تظهر من خلال وجه متعب . ومن شدة البرد كان تنفسها الدافىء يتكثف في هواء الحجرة محدثا لونا ابيض . ضغط بركبته المهزولة على الخشب الهش وكسره . وتنهد الخشب ، ثم انطلقت منه رائحة حلوة طرية ملأت الحجرة . واخذ قطعة من الخشب وشمها بانفه ثم ضحك بهدوء لان رائحة الخشب الهش تشبه رائحة الكمك . قالت زوجته لا تضحك انه نائم .

وضع الرجل قطعة الخشب الهش في الموقد المصنوع من الصفيح فاخذت تشتعل وترسل حفنة من اللهب الدافىء الذي انتشر في هواء الحجرة . وانعكس ضوء اللهب على وجه صغير مستدير ومكث فترة قصيرة . وبالرغم من ان ذلك الوجه الصغير لم يتجاوز عمره ساعة واحدة فقد كان واضح المعالم يحتوي على اذنين وانف وفم وعينين . وبالرغم من ان الطفل كان نائما فقد كانت عيناه واسعتين وكان فمه فاغرا وتنفسه بطيئا ، والانف والاذنان موردة . قالت الام لنفسها انه يعيش . ونام الوجه الصغير . قال الرجل لزوجته : هناك كويكى ، قالت الام نعم . هذا شيء جميل . الجو بارد . اخذ الرجل قطعة من الخشب الحلو الهش واشعلها . قال لنفسه لقد حصلت على طفلها وهي الان ترتعد من البرد . ولكنه لم يجد امامه احدا يمكنه ان يلطمه في وجهه جزاء على ذلك ، وعندما رفع غطاء الموقد سقطت حفنة الضوء مدة اخرى على وجه الطفل النائم . قالت المرأة بصوت خافت : « انظر ! انه اشبه بهالة القديس » . هالة القديس ! « قال هذا لنفسه ولكنه لم يجد امامه احدا يلطمه في وجهه » .

ثم كان هناك بعض الاشخاص يقفون بالباب ، قالوا : « لقد رأينا الضوء من النافذة . نريد ان نستريح عشر دقائق . » قال لهم الرجل : « ولكن لدينا طفل » . لم يقولوا شيئا ودخلوا الحجرة بالرغم من ذلك،

ونفخوا الضباب من انوفهم ورفعوا اقدامهم الى اعلى .. همسوا قائلين : نحن في غاية الهدوء . ثم سقط الضوء عليهم . كانوا ثلاثة في ثلاث بذلات عسكرية قديمة . كان بيد احدهم ورق مقوى وكان مع الاخر كيس ، اما الثالث فكان بلا يدين .

قال : اني ارتعد من البرد ، ورفع عقب السيجارة الى اعلى . عندئذ اداروا جيب المعطف ناحية الرجل وكان به دخان وورق سجائر رفيق . لفوا سيجارتين . قالت المرأة : « لا ، الطفل . » .

خرج الاربعة ليقفوا امام الباب وكانت سجائرهم المشتعلة اربع نقط في الظلام ، وكان احدهم يربط ساعيه الفليظتين . اخرج من كيسه قطعة خشبية . قال : حمار نحته في سبعة اشهر . من اجل الطفل . قال هذا واعطاه للرجل . سأله الرجل : ما بال ساقيك ؟ قال الرجل الذي تحت الحمار : ماء من الجوع . وسأل الرجل : والاخر ، والثالث .. وتحسس الحمار بيديه في الظلام . ارتعد الثالث في بذلته العسكرية وهمس : لا شيء . انها الاعصاب . كنا خائفين جدا . ثم أطفأوا سجائرهم ودخلوا الحجرة .

جلس الرجال الاربعة رافعين ارجلهم وراحوا ينظرون للوجه الصغير النائم . اخرج الرجل الذي كان يرتعد من علبة الكرتون قطعتين من الحلوى الصفراء وقال : للزوجة .

فتحت المرأة عينيها الشاحبتين الزرقاوين ، بشدة عندما رأت الرجال الثلاثة المعتمين منحنين فوق الطفل . كانت خائفة ولكن الطف مد ساقيه الى صدورهم وصرخ صرخة قوية جعلت الرجال المعتمين يرفعون اقدامهم ويتسللون الى الباب وهنا احنوا رؤوسهم مرة اخرى ثم خرجوا الى الظلام .

تابعهم الرجل بنظراته .. قال لزوجته : « وقديسون من نوع عجيب » ثم اغلق الباب وتمتم : قديسون رائعون . ونظر الى الكويكر . ولكنه لم ير قبضة يديه .

همست زوجته : ولكن الطفل صرخ ، صرخ صراخا حادا . وعندئذ ذهبوا . انظر اليه كيف يبدو الان نشيطا . قالت هذا باعتزاز . وفتح الوجه الصغير فمه وصرخ . وسألها زوجها : هل يبكي ؟.. اجابته : كلا اعتقد انه يضحك . تناول قطعة من الخشب الهش واخذ يشمها وقال : رائحتها مثل رائحة الكعك .. لذيذة جدا . قالت له المرأة : اليوم ايضا هو عيد الميلاد تمتم قائلا : نعم الميلاد ، وسقطت من الموقد حفنة من الضوء الساطع على الوجه الصغير المستغرق في النعاس .

* * *

٢ . الخبز

فجأة استيقظت من النوم . كانت الساعة نمام الثانية والنصف . سألت نفسها لماذا استيقظت ؟.. آه .. تعثر احد بكرسي المطبخ . اخذت تطرق السمع في اتجاه المطبخ . هدوء . هدوء تام .. وعندما تحسست يدها السرير ، وجدته خاليا . كان هذا هو سبب السكون الشامل ، لقد افتقدت انفاسه . نهضت من الفراش واخذت تتخبط في المسكن المظلم الى المطبخ . وفي المطبخ تلاقيا . كانت الساعة الثانية والنصف . رأت شيئا ابيض بجوار « النملية » . فتحت النور وقفا بثياب النوم امام بعضهما بالليل في الثانية والنصف في المطبخ .

كان طبق الخبز فوق المنضدة . رأت انه قطع خبزا . كانت السكين لا تزال بجانب الطبق . وفوق الفرش كانت بقايا الخبز متناثرة .. عندما يذهبان للنوم في المساء كانت دائما تنظف المفرش . كل مساء . ولكن قطع الخبز كانت الان فوق المفرش . والسكين . احست برودة البلاط تسري في جسدها ابعدت نظرها عن الطبق . قال وهو ينظر حوله في المطبخ : ظننت ان هناك احدا .

اجابت : انا ايضا سمعت شيئا ، اكتشفت انه يبدو عجوزا في ثياب النوم ، عجوزا كما كان : ثلاث وستون سنة . بالنهار كان يبدو احيانا اصغر سنا ، قال لنفسه : هي ايضا تبدو كبيرة في السن . في ثياب النوم تبدو عجوزا ، ولكن ربما كان الشعر هو السبب . الشعر دائما هو الذي يجعل النساء يبدون في الليل اكبر سنا . « كان يجب ان نرتدي حذاء . حافي القدمين هكذا فوق البلاط البارد . ستمرض . لم تنظر اليه لانها لم تتحمل ان يكذب بعد تسع وثلاثين سنة من زواجهما . « ظننت هناك شيئا » قالها مرة اخرى وهو ينظر تائها من ركن لاخر ، سمعت شيئا ، ولكن لم يكن هناك شيء . قالت : انا ايضا سمعت شيئا . ولكن لم يكن هناك شيء . رفعت الطبق من على المنضدة ونظفت المفرش من بقايا الخبز .

ردد كالصدى : لا .. لم يكن هناك شيء .

اسعفته قائلة : تعال . كان هذا في الخارج . تعال الى السرير . ستبرد فوق هذا البلاط .

تطلع الى النافذة : نعم ، لا بد ان هذا كان بالخارج . اعتقدت انه هنا .

رفعت يدها الى مفتاح النور . قالت لنفسها : « لا بد ان اطفيء النور الان والا ظللت انظر الى الطبق . لا يجب ان انظر اليه وتعال يا رجل » قالت هذا واطفأت النور ، كان هذا في الخارج مواسير المطر تتخبط دائما في الحائط عندما تهب الريح ، هي المواسير بالتأكيد ، انها دائما تصدر صوتا اثناء العاصفة .

اخذ الاثنان يتخبطان في المر المظلم الى حجرة النوم . انزلقت اقدامهما الحافية على الارض .

قال : انها الرياح . هبت طول الليل . ولما رقدا في الفراش قالت : نعم كانت الريح تهب طول الليل . هي المواسير بالتأكيد . « نعم، ظننت ان هناك شيئا في المطبخ . كانت هي المواسير . » .

قال هذا وكأنه اخذ يغيب في النوم . ولكنها لاحظت رنة صوته الزائفة عندما يكذب .

الجو بارد .. قالت هذا وهي تتثاءب ، سانكمش تحت اللحاف . تصبح على خير .

اجابها : نعم ، الجو بارد جدا . ثم ساد الهدوء . وبعد لحظات سمعت صوته وهو يمضغ ببطء واحتراس ، تعمدت ان تتنفس بعمق حتى لا يلاحظ انها لا تزال مستيقظة . ولكن صوت المضغ كان منتظما بحيث جذب اليها النوم .

عندما رجع في المساء التالي الى البيت ، قدمت له اربع قطع من الخبز ولم يكن قبل ذلك يأكل اكثر من ثلاث .. تستطيع ان تأكل اربع قطع . قالت هذا وابتعدت عن المصباح . انني لا اتحمل هذا الخبز . فلتأكل واحدة زيادة . اني لا اتحمله . لاحظت كيف انحنى على الطبق . لم يرفع رأسه اليها .. احست في هذه اللحظة نحوه بالاشفاق . « لا يمكن ان تكتفي بقطعتين » قال هذا وهو منحن على الطبق .

بالطبع . اني لا اتحمل الخبز في الليل ، كل يا رجل . كل بعد لحظة كانت تجلس معه الى المائدة ، تحت المصباح .

٣ . حتى الجرذان تنام ليلا

تثاءبت النافذة ـ التي تشبه الحجر في الجدار الوحيد المطلى بلون احمر مائل للزرقة مفعم بالشمس الغاربة . اخذت سحب من التراب تبرق خلال بقايا المداخن الناتئة ، بدأت صحراء الانقاض في النعاس

كانت عيناه مغمضتين . فجأة اشتدت الظلمة حوله ولاحظ ان هناك شخصا يقف امامه ، مظلما وهادئا . قال لنفسه : الان عشروا عليّ ! ولكنه عندما القى نظرة خاطفة وجد امامه ساقين هزيلتين في سروالين بائسين وقد وقفتا شبه معوجتين امامه بحيث استطاع بصره ان ينفذ خلالهما ثم غامر بلمحة سريعة الى اعلى الساقين فوجد امامه رجلا

عجوزا . وكان يحمل في يده سلة ومطواة . وكانت اطراف يديه مغطاة بالطين . « انك تنام هنا . اليس كذلك ؟ » .. سأله الرجل هـــذا السؤال وقد اخذ ينظر من اعلى الى رأسه المشعث الشعر . نظـــر « يورجين » الى الشمس من بين رجلي العجوز ، ثم قال : « لا ، اني لا أنام . اني اقوم بالحراسة . اطرق العجوز برأسه وقال : الهـــذا السبب تحمل تلك العصا الغليظة معك ؟ تشجع يورجين وقال نعم ، وشدد قبضته على العصا . وماذا تحرس هنا ؟ .

ـ هذا شيء لا استطيع ان ابوح به .

وشدد يده على العصا .

ـ تحرس مالا ، أليس كذلك ؟

أنزل العجوز السلة على الارض واخذ ينظف المطواة بثيابه .

اجاب يورجين بشيء من الازدراء : لا احرس مالا على الاطلاق بل شيئا آخر تماما .

ـ اي شيء اذن ؟

ـ لا استطيع ان اقول . شيء آخر وكفى .

ـ اذن فلن اقول لك ماذا تحتوي هذه السلة .

ضبط الرجل السلة بقدمه ثم طوى المطواة .

ـ استطيع ان اخمن بما في السلة . انه طعام للارانب .

اجابه الرجل : رائع ! نعم ! انك ولد ذكي . كم تبلغ من العمر اذا؟

ـ تسعة أعوام .

ـ آه ! تسعة . أتعرف اذا كم تساوي ثلاثة في تسعة ؟

ـ اجابه يورجين بالطبع .

ولكي يكسب بعض الوقت للتفكير قال :

ـ مسألة بسيطة جدا . ثم نظر بين ساقي الرجل ، وسأله مرة اخرى : ثلاثة في تسعة أليس كذلك ؟ سبعة وعشرون ..

عرفت الحل فورا .

ـ بالضبط . وانا احمل هذا العدد من الارانب البرية في سلتي .

فتح يورجين فمه متعصبا وقال : سبعة وعشرين ؟

ـ يمكنك ان تراها . معظمها لا زال صغيرا جدا . اتحب هذا ؟

قال يورجين مترددا : لا استطيع . لا بد ان اقوم بالحراسة .

ـ دائما ؟ حتى في الليل ؟

ـ حتى في الليل . دائما ، دائما .

رفع يورجين بصره الى الساقين المعوجتين

همس : يوم السبت الماضي .

ـ ولكن الا تذهب الى بيتك ابدا ؟ لا بد طبعا ان تاكل .

رفع يورجين حجرا كان تحته نصف رغيف ، وعلبة صغيرة مـــن الصفيـح .

سأله الرجل : اندخن ؟ هل عندك غليون ؟

امسك يورجين عصاه بقوة وقال مترددا : اني ألف . لا احـــب الغليـون .

قال الرجل وهو ينحني على سلته : خسارة . كنت تستطيع ان تلقي نظرة على الارانب الصغار على الاقل . ربما اخترت واحدا منها . ولكنك لا تستطيع ترك هذا المكان .

اجابه يورجين في حزن : كلا ، لا استطيع .

رفع الرجل سلته ثم نهض قائلا : طيب . ما دام من الضروري ان تبقى هنا . خسارة

ثم استدار ليذهب . وهنا قال يورجين بسرعة : اذا كنت تحفظ السر ، فانا هنا احرس الجرذان .

رجعت الساقان المعوجتان خطوة الى الوراء : الجرذان ؟.

ـ نعم . انها تتغذى على الاموات . من البشر . انها تعيش عليهم .

ـ من قال هذا ؟

ـ المعلـم .

سأله الرجل : وانت الان تحرس الجرذان ؟

ـ بالطبع لا . (ثم قال بصوت منخفض) : اخي يرقد هنا . هنا .

واشار يورجين بعصاه الى انقاض الجدران . اصابت بيتنا قنبلة. فجاة اختفى النور من البدروم وهو ايضا . نادينا عليه . كان اصغر مني بكثير . اربع سنين . لا بد انه لا يزال هنا . انه اصغر مني .

نظر العجوز الى شعر رأسه المنكوش . ثم قال فجاة : ولكن الـم يقل لكم المعلم ان الجرذ تنام ليلا ؟.

همس يورجين لا . وبدا متعجبا جدا .. كلا ، لم يقل لنا هذا .

قال ، الرجل : كيف لا يعرف المعلم هذا ؟. حتى الجرذان تنام ليلا . يمكنك بالليل ان تذهب الى البيت . انها تنام دائما بالليل عندما يحل الظـلام .

اخذ يورجين يرسم بعصاه حفرا صغيرة في الرماد . قال لنفسه . اسرة صغيرة كلها اسرة صغيرة . قال العجوز وكانت ساقاه المعوجتان قلقتين : سأطعم الارانب وعندما يحل الظلام سآتي لاخذك معي . وربما استطعت ان احضر واحدا منها ، ارنبا صغيرا . ما رايك ؟

أخذ يورجين يرسم حفرا صغيرة في الرماد ، ارانب صغيرة . بيضاء وسوداء ، ورمادية . ثم قال بصوت خافت وهو ينظر الـــى الساقين المعوجتين : لست ادري اذا كانوا فعلا ينامون بالليل .

مضى الرجل فوق انقاض السور الى الشارع وقال من هناك : بالطبع ان كان معلمكم لا يعرف ذلك ، فعليه ان يرحل .

نهض يورجين قائما وقال هل يمكنني ان آخذ واحدا ؟ ابيض ان امكن ؟.

قال العجوز وهو ينصرف : سأحاول . ولكن لا بد ان تنتظرني هنا حتى اعود . ساعود بك الى البيت . لا بد ان اقول لابيك كيف يبني حظيرة صغيرة للارانب اذ يجب ان تعرفوا هذا .

هتف يورجين : نعم سانتظر . لا بد ان ابقى هنا للحراسة حتى يحل الظلام . سانتظر بكل تأكيد . ثم صاح : لا تزال عندنا الـــواح خشبية في البيت الواح صناديق .

ولكن الرجل لم يسمع هذه العبارة . اطلق ساقيه المعوجتين في اتجاه الشمس . كانت حمراء منذ الغروب ، واستطاع يورجين رؤيتها من بين ساقي العجوز ، فقد كانتا معوجتين جدا . واخذت السلـــة تتأرجح يمينا وشمالا في يد العجوز . كان بها طعام للارانب . طعام اخضر مغبر من آثار الانقاض .

ترجمـة منـى نويشي

مكتبة النهضة ـ بغداد

اطلب منهـا

جميع منشورات

دار الآداب

وسائر المنشورات العربية